تعليمية الأدب المقارن في الدرس الأدبي الأكاديمي

سليم حيولة
جامعة المدية

ملخص

من الضروري أن نأخذ في الاعتبار أهمية العديد من الأشياء في تدريس الأدب المقارن في الجامعة، وأول هذه الأمور هي الاهتمام بالقضايا النظرية في الكتب المدرسية المهتمة بالدراسات الأدبية المقارنة، كما يجب أن يكون الباحثون المتخصصون فيه على دراية بطبيعة النص الأدبي، وإدراك شامل لأهمية الفعل أو الأداء اللغوي الذي يستخدم لفهم نظام العادات والتقاليد التي تحكم علاقة النصوص القومية بالنصوص الثقافية الأجنبية، كما يجب العمل على تشجيع دراسة الأدب الجزائري والتركيز على خصوصيات الثقافة الجزائرية في علاقاتها المتعددة مع الثقافات الأخرى على مر التاريخ، ومعالجة قضايا مثل دراسات حديثة جدا مثل الترجمة ودراسات حول الهوية ودراسات الآخر وقضايا مثل الاختلاف الثقافي والتعدد، وكذلك التركيز على التغيرات الكبرى الحديثة التي تعرضت لها الدراسات الأدبية المقارنة .

Résumé

Les enseignants de la littérature comparée éprouvent des difficultés dues à l'absence d'une vision claire des thématiques comparatistes que ce soit ceux élaborés en Occident ou dans le monde arabe. Ils ne connaissent pas assez les mutations qu'a connues cette discipline et ne sont pas qualifiées pour comprendre l'interdisciplinarité qui caractérise cette spécialité. Il faut œuvrer pour comprendre la littérature algérienne dans ses relations avec d'autres cultures et proposer des études sur la traduction, l'identité et la diversité culturelle en les transposant dans le champ didactique.

Abstract

It is necessary to take into account the importance of many things in the teaching of comparative literature at the University, first by the performance of theory in textbooks. Researchers must be aware of the nature of the literary text, and the intimity of the act or linguistic performance that is used to understand the systems of customs and traditions that govern its relationship with foreign texts, and encouraging the study of Algerian literature and focus on the specifics of Algerian culture in its manifold relationships with other cultures throughout history, and to address issues such as very modern studies translation and identity and studies and other interfaces, which are the subject of modern major changes.

تمهيد

تلقى تعليمية مقياس الأدب المقارن في الجامعات الجزائرية تذبذبا وتتسم باختلاف كبير من قسم إلى آخر ومن جامعة إلى أخرى، وذلك لأسباب عديدة من بينها عدم تخصّص البعض الذين يشتغلون في الميدان أو لعدم امتلاكهم وضوحا في الرؤى فيما يتعلق بقضايا الأدب المقارن في الغرب وفي العالم العربي، وكذلك لعدم اطلاعهم على مختلف التحولات التي تمس هذا التخصص كغيره من التخصصات المعرفية، فالأدب المقارن لم يبق بمنأى عن مختلف التحولات الكبرى باعتباره نشاطا عبر-تخصصي Interdisciplinaire وبحكم أنه يستند إلى تصورات فكرية ومذاهب علم- إنسانية، فغدا من الواجب أن يتلقى المتخصصون فيه تكوينا مناسبا مستندا إلى أرضية فلسفية تسمح لهم بالانفتاح على مجمل القضايا التي تُكوّن مادته والتي هي نتيجة تحولات تحصل في ميادين كثيرة من مثل الفلسفة وعلم النفس والدراسات الثقافية، وإن كان لهذه الدراسة من فائدة فإنها تتمثل في محاولة توضيح ما يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار في الدرس الأدبي المقارن وذلك بالاهتمام بقضية الكفاءة والأداء، التي تكلّم عنها الناقد الأمريكي جوناثان كولر في تعليم النصوص، مستفيدا فيها من نظرية اللساني الأمريكي الآخر نعوم تشومسكي، وكذلك ما يلزم أن يركّز عليه الأساتذة الموكول لهم تدريس مقياس الأدب المقارن بالجامعة الجزائرية في التشجيع على دراسة النصوص الأدبية الجزائرية والتركيز على خصوصيات الثقافة الجزائرية في علاقاتها المتشعبة مع الآخر عبر التاريخ، وكذلك ضرورة دراسة تلك النصوص في اللغات التي كُتبت بها، بالإضافة إلى التطرق لقضايا شديدة الحداثة كدراسات الترجمة والهوية والأنا والآخر والدراسات البينية والتي هي محور التحولات الكبرى في الغرب اليوم. وبداية من الواجب التأكيد على أهمية وعي الدارس أو الباحث في هذا المجال بأهمية الخصوصيات التي تدخل في عملية الاكتساب، إذ «**لابد أن يتعلم المرء...كيف يوظف العلاقات اعتمادا على أعراف قراءة الأدب وتقاليده (كمؤسسة اجتماعية لها قوانينها وتقاليدها وأعرافها).هذه الأعراف والتقاليد هي مكونات الأدب كمؤسسة، وهذا ما**

يقلب قضايا النقد التقليدي السائدة...فالنص ما هو إلا فعل (أداء) لغوي يكتسب معناه باعتماده على نظام الأعراف والتقاليد التي يدركها القارئ وتمكن منها مثلما تمكن منها المؤلف»(ميجان الرويلي وسعد البازعي، 2002، ص 209) . فمن خلال نظرية الكفاءة والأداء التي جاء بها اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي يمكن التأكيد على وجوب إدراك ماهية النص الأدبي، وخصوصياته التي ما هي في نهاية المطاف سوى فعل أو أداء لغوي يُستعمل في فهمه الدراية بنظام الأعراف والتقاليد التي تحكمه، وتزداد القضية تعقيدا إذا كان لذلك النص الأدبي المنتمي لنوع أدبي معين، علاقة بنصوص أجنبية ما يحتم على الدارس الوعي بنظام الأعراف في تلك الآداب الأخرى، ومنه«**فإذا كانت القدرة والأداء بحسب نظرية تشومسكي هي مقدرة يمتلكها الذين يتكلمون بفعالية ضمن هذا النظام. ولا يشترط فيهم الوعي بتلك القواعد والأعراف، بل هم في معظم الحالات لا يعونها أبدا، إذ إن " القدرة/ الكفاءة" هي إدراك ذاتي (فطري) لتلك القواعد والقوانين التي تهيئ للمرء إمكانية "القول" والفهم دونما حاجة لأن تكون انعكاسا واضحا لتلك القوانين**».(ميجان الرويلي وسعد البازعي. 2002. ص 209). فإنه من اللازم على الدراسة الأدبية المقارنة أن تأخذ في حسبانها النظام والقواعد والأعراف في كل عملية مقارنة بين الآداب، ومن شأن ذلك أن يتيح الإحاطة بكل جزئيات الموضوع لتكون النتائج مقبولة في الأخير.

وإن تاريخ الأدب المقارن مرتبط بالقوانين والتشريعات التي أصدرت في البلدان التي تعتني بمثل تلك الدراسات أو التي أرادت لها أن تتطور«**فمن علامات نجاح الأدب المقارن والاهتمام به في فرنسا إدراجه في منظومة التعليم الثانوي وفتح شعب خاصة في التعليم العالي عدا ما يقدمه الباحثون الجامعيون، ومنهم الأجانب من أعمال ورسائل قيمة لنيل شهادة الدكتوراه**» (زبير دراقي .1992. ص 27/26). وقد أتاحت تلك التشريعات والمقررات للأدب المقارن أن يتطور ويصير من بين أهم التخصصات البحثية في الجامعات الأوروبية، بل إن عددا من الدول قد خصّصت له معاهد خاصة منفصلة عن

أقسام اللغات، ويتم الاهتمام بالأدب المقارن في الجزائر حيث يمكن القول إنها «**توجّه اهتماما متزايدا إليه إما عن طريق إدماجه في المواد الأساسية المكونة لمنظومة تعليم التدرج وما بعده وإما عن طريق إيفاد المبعوثين إلى أوربا لاستكمال تكوينهم والتخصص فيه** » (زبير دراقي 1992.ص 27). فما يضمن التنمية الثقافية لبلدنا هو استثمار ما لدى الثقافات الأخرى وإقامة جسر تواصلي يقوم على المثاقفة الحقة التي نستطيع بها إغناء ثقافتنا وإحلال مكانة لها بين الآداب العالمية، وهو ما بدأت ثماره تظهر في السنوات القليلة الماضية حيث بدأت حركة الإبداع تنشط إلى حد كبير وظهرت تجارب روائية متميزة وكمثال على هذا أهمية الإغناء والمثاقفة مع الآخر ما حصل بين الثقافتين الإغريقية واللاتينية حيث ظلت اللغة اللاتينية لغة فقيرة مدة خمسة قرون كاملة تفتقر إلى النصوص الأدبية ولكن وبمجرد اتصال الرومان بالإغريق حتى ظهرت عنده آثار فنية كبرى كتلك التي وجدت لدى نظرائهم من اليونان.

أولا: الأدب المقارن نشاط عبر-تخصصي

إن من مبادئ تعليمية الأدب والنصوص أن تكون مادة التخصص المُدرّس واضحة من حيث تاريخيتها، كما يستلزم الإحاطة الشاملة بظروف نشأتها ومختلف السياقات التي ساهمت في استوائها كتخصص قائم بذاته، والاطلاع على الأسس المعرفية التي ساهمت في تحقّقها، بالإضافة إلى مرجعيات أقطابها الفكرية والفلسفية، والإيديولوجية وكذلك علاقاتها بتخصصات تتقاطع معها معرفيا ومنهجيا، وضرورة التنبه إلى إسهامات المدارس التي عملت على تطوير مادته والنهوض بها . وبالإضافة إلى كل هذا لابد من أن تساهم المعارف التي يحصلها الفرد في تغير في تصرّفاته نحو الأحسن «**عندما يتغير الناس فإن على معارفهم وأقاربهم أن يتوافقوا مع هذا التغير ...فبعضهم يؤيد الرأي القائل بأن التعلم هو تغير في السلوك ينجم عن التدريب المعزز**» (مصطفى ناصف. 1983 ص 279 و281). فالهدف من التعليم في نهاية المطاف هو خلق إنسان منفتح على المعارف العامة وعلى الآخر الذي يبدو لأول وهلة أنه مختلف معه .

ومنه فلا بد في عملية تعليمه من أن تتمّ الإشارة إلى طبيعة الأدب المقارن العبر-تخصصية والمقصود بها هو الإفادة من مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية كعلم النفس والفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد ومن آلياتها الإجرائية في مقاربة الأدب الذي يبقى المدونة الأساسية في التناول في الدرس الأدبي المقارني« **ونفهم بذلك أن على المتعامل مع الأدب المقارن ألا يعزل الدرس عن أدبيته، أو استلهاماته في العلوم الإنسانية** » (سعيد علوش. 1987. ص 14). فمنذ البداية لابد أن يكون من الواضح عدم عزل النص المدروس في الدراسات المقارنة عن أدبيته أي محاولة اكتشاف الخصائص الأدبية الموجودة فيها والإشارة إليها وكذلك- وهذا هو المهم- إلى علاقاته المتشعبة بمختلف التخصصات العلم-إنسانية لأن الهدف من كل نشاط تدريسي -في نهاية المطاف- هو اكتساب وعي بأهمية النشاط المدروس وكيفية الاستفادة منه في الواقع المعيش .

ثانيا : المركزية الأوروبية؛ روح الدراسات الأدبية المقارنة

لابد في مستهل الدرس الأكاديمي أن يتم التطرق إلى نشأة الأدب المقارن والمرتبطة بفرنسا خصوصا وأوروبا عموما حين ظهر «**أبيل فرانسوا فلمان، والذي كان مدرسا للمقارنة بين الآداب في باريس ومارسيليا. وقد نشر مادته عام** 1828-1829 **تحت عنوان "صورة الأدب الفرنسي في القرن الثالث عشر" في أربعة أجزاء...ووردت في الكتاب تعبيرات مثل "صورة مقارنة" "دراسة مقارنة" "تاريخ مقارن"...انتشر الاصطلاح بعد فلمان انتشارا لا بأس به، واستقر "الأدب المقارن" كمصطلح دليل على تلك الدراسات بعد استعمال سانت بيف له**» (رينيه ويليك 1987. ص 255/ 256). وقبل هذا التاريخ لا تعدو تلك المقارنات التي أجريت ضمن نظرية المحاكاة Imitation عند الرومان لدى هوراس وكونتيليان أو القواعد التي وضعتها جماعة الثريا La Pléiade ومن بعدهم الكلاسيكيون الفرنسيون Classicisme والمحاولات التي قاموا بها، وكذلك ما قام به عدد من أقطاب الثقافة العربية من أمثال الجاحظ في كتبه الكثيرة؛ حين تحدث عن الثقافات الوافدة أو في تناوله لقضية الترجمة، أو ما

قام به كل من ابن النديم في " **الفهرست**" والمسعودي في " **مروج الذهب ومعادن الجوهر**" أو ما قام به ابن سينا في " **تسع رسائل في الحكمة الطبيعيات**" وفي "**رسالة القدر**" مجرد محاولات تنتقص للعلمية وأصحابها لم يكونوا واعين بأنهم يشتغلون ضمن تخصص يدعى بالأدب المقارن, فلا بد على المتخصص هنا من أن يكون واعيا بظروف نشأة الأدب المقارن والمرتبطة بنهاية عشرينيات القرن التاسع عشر كما مر، وأن المقارنات التي أقيمت قبل هذا التاريخ لا تعدو كونها مجرد محاولات كان ينقصها -من قبل ممارسيها-؛ الوعي بأنهم كانوا يشتغلون ضمن تخصّص مُعيّن يدعى" الأدب المقارن" كما أن مادتهم المدروسة لم تكن واضحة بما فيه الكفاية، وبعبارة أخرى لابد من التوضيح في الدرس الأدبي المقارن من أن العلم لابدّ له من مادة يدرسها؛ مادة واضحة ومحدودة، بالإضافة إلى امتلاكه منهجية تحوي آليات إجرائية تسمح له بإجراء بحوثه التي تقوده في نهاية المطاف إلى نتائج يمكن الوثوق إليها.

ومن خلاله تلزم الإشارة إلى أن ما كان يُميّز بحوث الأساتذة الفرنسيين والألمان الأوائل هو تشبعها بفكرة المركزية الأوروبية Ethno-centrisme ؛ وهي فكرة على جانب كبير من الأهمية لأنها ستسمح لنا بتقييم فعلي وجاد لمسيرة الدراسات الأدبية المقارنة واستخلاص القيم منها بما يتيح للباحث العربي توجيه البحوث العربية الوجهة التي تستحقها، فالأدب المقارن ظهر كمجال للدراسة الأكاديمية في أوروبا حاملا معه «...**مفهوم أن أوروبا والولايات المتحدة معا كانتا مركز العالم، لا بفضل موقعهما السياسي وحسب، بل لأن آدابهما كانت الأكثر جدارة بالدراسة أيضا**» (إدوارد سعيد 2004. ص 114). وهذه هي السمة التي رافقت الدراسات المقارنة منذ نشأتها وحتى اكتمال تصوراتها على يد أجيال كثيرة من الباحثين.

فمنذ الدراسات الأولى اتضح التصور العام والبنية اللاشعورية التي كانت تحدد بحوث الدراسات المقارنة التي ارتبطت بفرنسا « **فقد ألّف الفرنسيان أبيل فرانسوا فيلمان وجان جاك أمبير كتابا في تاريخ الأدب تضمن الروابط والتأثيرات بين الآداب الأوروبية** (ميجان الرويلي وسعد البازعي 2000. ص 22).

فمنذ البداية الأولى التزم هذا التخصص بطرق موضوع علاقات التأثير والتأثر بين الآداب الأوروبية دون أن تكون لهم الجرأة على توضيح المصادر غير الأوروبية وعلى رأسها الآداب الشرقية ومن بينها الأدب العربي والتي ساهمت في تطعيم الآداب الأوروبية فنيا وفكريا وأسلوبيا. في هذا المقام لابد من الحديث عن التأثير الكبير الذي مارسه الخطاب الصوفي العربي في اعتماده على التكثيف الرمزي في اللغات الأوروبية . «**فقد حدد فان تيغم حقول الأدب المقارن بجعلها تشمل دراسة العلاقة بين الأدبين اليوناني والروماني وما يدين به الأدب الحديث لهما، ثم ركّز على الروابط بين الآداب الأوروبية الحديثة بوصفها الميدان الرئيس للدراسة المقارنة**» (ميجان الرويلي وسعد البازعي. 2000. ص 23).فهذا المنظر المقارني الكبير حصر مفهوم الأدب المقارن في دراسة التأثيرات التي مارسها الأدب الإغريقي في الأدب اللاتيني والذي سمح بظهور مجموعة من الكتاب نتيجة تأثرهم بنماذج إبداعية يونانية فظهر فرجيل مؤلفا "الإنياذة" نتيجة تأثره بـ" إلياذة هوميروس". ولم تشذ المدرسة الأمريكية عن هذا لأنه « **من قواسم الالتقاء بين المدارس (مع بعض الاستثناء للمدرسة الروسية) مهادها ومركزيتها الغربية، أي انتماؤها –عن وعي أو لا وعي- إلى الغرب ثقافيا وما يتضمنه الإحساس بذلك الانتماء غالبا من اختلاف الغرب وتميزه عن غيره من مناطق العالم**».(ميجان الرويلي وسعد البازعي. 2000. ص 25)، فالمركزية الأوروبية بارزة بشكل كبير ليس في النصوص الإبداعية والفنية فحسب وإنما في الكتابات النقدية كذلك، والأدب المقارن لم يخرج عن كونه دراسات مشبعة بالتمركز حول الذات . وهو كتخصص بحثي لم يشذّ عن هذه القاعدة وهي أمور يجب أن يكون كل مشتغل بالدرس الأدبي المقارن واعيا بها.

من الأفضل أن يترافق الدرس مع توضيح فكرة المركزية وتفكيكها ليس في تشبع مدارس الأدب المقارن(الفرنسية والأمريكية) بها وانطلاقهم منها فحسب، وإنما أيضا في النتاج الأدبي الغربي؛ فالإنسان الأوروبي يرى أنه يتميز بصفات معينة دون غيره من البشر الآخرين، وهو ما انبنى عليه تصور للأنا وللآخر، ما ساهم في وضع «**حدٍّ فاصل بين نمطين من بني الإنسان؛ نمط دوني ومنحط،**

ووضيع لا معنى لحياته...ونمط متفوق وذكي ورفيع، وسام...يندرج في هذا النمط عرق متصل بكل تنوعاته يبدأ باليونان فالرومان فالجرمان الذين هم زبدة مخاض للتاريخ. أما النمط الأول، فيتركب من أعراق بدائية» .(عبد الله إبراهيم. 2010 . ص 346) وهذه الرؤية الجديدة خَلقَت نسقا واضحا في مجمل الكتابات الغربية العلمية منها وغير العلمية، وساهمت في وضع ما صار يُعرف بـ"**المركزية الغربية**" التي هي نسق من الأنساق التي تشتغل داخل النصوص الغربية برمتها، وهو ما يجب توضيحه لمتلقي الدرس الأكاديمي المقارن، لأنه وانطلاقا من هذه النظرة تم تسفيه الآداب غير الأوروبية واعتبارها ناقصة وغير كفؤة لنظيرتها الغربية، فـ «...**بسبب أهمية الملحمات المكتوبة في التراث الأوروبي فان الثقافات التي لم تكن تمتلك ملحمات والتي كانت تَعتبر القصيدة الغنائية أسمى شكل من أشكال الشعر، هذه الثقافات أصبحت أقلّ أهمية، وقد كان المقياس الذي قيست به تلك الأعمال وأُعتُبرت دون المستوى هو أعمال هوميروس والإغريق ومسرحيات شكسبير وشعر سبنسر وميلتون**»(سوزان باسنيت.1999.ص 23) فقد كانت النصوص الأدبية الأوروبية القديمة لدى الإغريق مثل ملحمتي هوميروس؛ الإلياذة والأوديسة، وتراجيديات إسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيد، وكوميديا أريسطوفان، وأدب القرون الوسطى مثل "الإنياذة" لفرجيل و"الكوميديا الإلهية" لدانتي أليغيري وأدب عصر النهضة والمسرحيات التي عُرفت في الأدب الكلاسيكي والشعر الرومانسي كلها تُعتبر النموذج الأسمى والأدب الأرقى دون غيره من آداب الشعوب الأخرى فتلك النصوص المشهورة أو ما يعرف بالآداب خاصية أوروبية ولم تستطع أيةُ ثقافة أخرى الإتيان بمثلها، وهو ما يعتبر تأسيسا لنسق ثقافي يَعتبر تلك الآداب الأوربية الأصل والمثال الواجب احتذاؤه بالرغم من أنه لا يمكن النظر إليها إلا باعتبارها نتيجة مثاقفة مع تراثات قديمة كثيرة.

فالبحوث التي أجريت ضمن التصورات الأوروبية للأدب المقارن عملت على تسفيه آداب تلك الشعوب التي لم تكن-من خلال ذلك المنظور- آدابا تستحق الاهتمام، ولا ترقى لأن تتناول إلى جانب آداب أوروبا الموسومة بـ"العظيمة" إلا

كمتأثر سلبي، ومن ثم ظهر مفهوم الآداب الراقية والآداب غير الراقية، ولكن ما يجب أن يقال هنا هو أن الآداب التي يرى الأوروبيون أنها آداب راقية لو عدنا إلى أصولها التاريخية لوجدنا أنها كانت نتيجة تفاعلات كثيرة ونتيجة مساهمات من شعوب اتصل اليونان وتأثروا بها، ولذلك فإن الشعوب غير الأوروبية قد ساهمت في إغناء الثقافة الأوروبية؛ وهي قضية تظل مُغيبة ومسكوتا عنها. وهو الأمر الواجب الإشارة إليه وخدمته في الدرس الأدبي المقارن المعاصر.

وبناء على هذا فإن المقارنين الغربيين يفسرون نشأة الآداب غير الأوروبية حديثا بتأثرها بالآداب الأوروبية وهو الأمر الحاصل في نظرة الأوروبيين للأدب العربي القديم حيث ظلوا يرون الشعر العربي القديم (وهو غنائي) على أنه أدنى مستوى وأقل قيمة، ولذلك عدُّوا الأدبَ العربي الحديث من الآداب الناشئة لأن العرب بدؤوا حديثا في نظم الشعر المسرحي أو الأنواع الأدبية الأوروبية كالقصة والرواية لأنهم لا يعتبرون شعرنا القديم مرجعا. ويرون أن ظهور أول رواية في الأدب العربي الحديث وهي رواية "**زينب**" سنة 1914 للمصري محمد حسين هيكل دليلا على فقر الثقافة العربية ونقصها وتبعيتها للأدب الأوربي فلولا نصوص الفرنسي " جان-جاك روسّو" لما أمكن وجود الرواية العربية والتي كتبت بحسب الخصوصيات الغربية. وإن دارسي الأدب المقارن الأوربيين يقومون بتكريس هذه الفكرة من خلال البحوث التي يقيمونها.

ثالثا : الدرس التطبيقي؛ التخلص من تصورات المدرسة الفرنسية

أما في الجانب التطبيقي فلابد أن يكون العمل المنجز متخلصا من تصورات المدرسة الفرنسية التي اشترطت عددا من الضوابط من أجل إقامة المقارنة بين نصين حين ألحت على وجوب اختلاف اللغة وضرورة إثبات الصلة التاريخية بينهما وهما الشرطان الممكن تجاوزهما بالرجوع إلى مبادئ المدرسة الأمريكية حيث يمكن المقارنة بين نصين من لغة واحدة أو دون ثبوت اتصال أحدهما بالآخر، ومنه يمكننا أن نقارن بين نص جزائري مكتوب بالفرنسية ونص فرنسي كما يمكن القول إن « **عددا من المقارنين الفرنسيين منهم كلود بيشوا واندريه**

ميشيل وإتيامبل عملوا على تجاوز تلك المفاهيم والإجراءات» (ميجان الرويلي وسعد البازعي. 2000. ص 24). وهذه النظرة المتجاوزة للتصور الفرنسي الذي ارتبط بالمدرسة التاريخية الفرنسية وبتوجهات أقطابها وهو التصور الذي ما يزال يهيمن على تصور الأوروبيين للدراسات المقارنة إلى اليوم هي ما يجب ممارسته في الدرس الأدبي المقارن في العالم العربي عموما والجزائر خصوصا.

بالإضافة إلى هذا يمكن التأكيد على ضرورة التخلص من فكرة مرجعية الأدب الأوروبي بالنسبة لعملية التأثير حيث يمكننا طرق موضوع تأثير الأدب العربي في نظيره الأوروبي وهو ما يعتبر من وجهة نظرنا تكسيرا لفكرة المركزية الأوروبية حيث وإلى اليوم لا يمكن للباحث في أوروبا أو سواها أن يقدم بحثا يتناول التأثير العربي-الإسلامي، فقد ثبت تأثر دانتي أيغيري بنصوص عربية هي نص "المعراج المحمدي" ونص" كيمياء السعادة " وهي فصل في كتاب الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي الأندلسي بالإضافة إلى نص "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري " ينظر صلاح فضل، تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية. في نصوص من مثل نص "**الكوميديا الإلهية**" للكاتب الإيطالي دانتي أيغيري"فمعهد "دانتي " في روما لا يعترف بالتأثير العربي في الثقافة الأوروبية القروسطية فتناول هذا الموضوع هو تكسير لتمركز أوروبا على ذاتها ومحاولة تكريس تصور جديد لتدريس الأدب المقارن في العالم العربي يقوم على إثبات التأثيرات العربية في نشوء النصوص الأولى للأدب الأوربي.ويمكن في هذا المقام الحديث عن تأثيرات عربية من مثل تأثير الموشحات في شعراء التروبادور الفرنسيين والإسبان وفي نشأة الشعر الأوربي، وكذلك تأثير قصة حي بن يقظان للفيلسوف المغربي أبو بكر محمد بن طفيل في نشأة أول نص قصصي في الأدب الإنكليزي وهو نص " روبنسون كروزو" لدانييل دي فو، كما يمكن الحديث عن تأثيرات لألف ليلة وليلة وغيرها .

رابعا : الأدب المقارن ليس هو المقارنة

كما ولابد ونحن في هذا المقام أن نشير إلى أن الأدب المقارن ليس هو المقارنة فحسب، فحصره في المقارنة هو من التأثيرات التي تركتها المدرسة الفرنسية، بينما نجد أنه يتجاوز المقارنة إلى مجالات عديدة، ويمكننا من خلال هذا أن نستفيد قضيتين مهمتين؛ ارتباط الأدب المقارن بالمقارنة من جهة وارتباط (المقارنة) بالجوانب التاريخية فحسب، ومنه ف « **ليس الأدب المقارن هو المقابلة، فهذه ليست سوى واحدة من طرائق علم يمكن تسميته"تاريخ العلاقات الأدبية الدولية كما حاول ماريوس فرانسوا غويار تعريفه من منظور المدرسة الفرنسية التي كادت تجعل من"المقارنة" ودرسها علما فرنسيا، لتبرير صدى كتّابها ونجاح مؤلفاتهم، خارج حدودها الإقليمية وفي دائرة نفوذها الفرانكفوني التاريخي، حيث كان يستحيل قبل مؤتمر(شابل هيل) وتدخل روني ويليك سنة** 1858 **تدويل ملكية "المقارنة الأدبية والانتقال بها من مستواها التاريخي إلى المستوى الجمالي**» (سعيد علوش.1987. ص7) فما كان يمارسه الأقطاب الأوائل هو مقارنة تاريخية عملت المدرسة الأمريكية فيما يعد على تجاوزه، فحتى وإن حصرنا دروسه في المقارنة فإنه لابد وأن تكون مختصة باكتشاف الجوانب الجمالية والفنية التي انتقلت من ثقافة إلى أخرى .

ومنه فلا ينبغي الاكتفاء بالمقارنة كما نظّرت لها المدرسة الفرنسية، وإنما لا بد من أن يشار إلى ما يُكوّن اهتمامات المقارنين المعاصرين اليوم أي تلك التحولات التي حدثت من مثل الدراسات مابعد كولونيالية التي تعتمد استراتيجية المصادرة Interpellation وهي الرد الذي قابل به الكتّاب المنتمون للبلدان المستعمرة سابقا للنصوص التي كُتبت حولهم، ومثال ذلك ما فعله الروائي السوداني الطيب صالح في ردّه بروايته "**موسم الهجرة إلى الشمال**" على رواية الإنكليزي جوزاف كونراد "**قلب الظلام**" Heart of Darkness فـ«**بطل صالح في موسم الهجرة إلى الشمال ليفعل (كما أنه هو) مقلوبُ ما يفعله (وما هو) كورتز: فيرحل الرجل الأسود شمالا إلى أقاليم البيض**»(إدوارد سعيد. 2004. ص 100) ومنه يتضح أن المقارنة بين نصوص تنتمي لثقافات

مختلفة بغرض اكتشاف وتفسير عملية التأثر التي حصلت بينها وساهمت في نشأة نوع أدبي في الثقافة المتأثرة هو ما كان يسم الدراسات المقارنة في أوروبا وأمريكا ، هذه المقارنة تم تجاوزها إلى استراتيجية "**المصادرة**" وهو ما يجب التركيز عليه في الدرس المعاصر ولهذا الأمر فضيلتان؛ الأولى هي متابعة التحولات الكبرى التي مسّت الأدب المقارن والثانية هي تكسير فكرة المركزية الغربية في التناول .

كما لابد من أن تتم الإشارة في سياق الحديث عن تحولات الأدب المقارن إلى الأسباب التي أدت إلى بروز دراسات متجاوزة قضية المقارنة التي ارتبطت بالأدب المقارن وحصرت مفهومه فيه، ومنه فـ «**الأول؛ تاريخ فكفكة الاستعمار ذاته؛ المثقفون والنشطاء الذين حاربوا ضد الحكم الاستعماري وخلفاؤُهم الذين يشاركون الآن في إرثه المستمرّ، تحدوا ونقّحوا التعاريف المهيمنة للعرق والثقافة واللغة والطبقة في سبيل جعل أصواتهم مسموعة. السياق الثاني؛ هو الثورة داخل التراثات الفكرية "الغربية" من خلال التفكير حول بعض المواضيع المماثلة؛ اللغة وكيف تعبّر عن التجربة، كيف تعمل الإيديولوجيات، كيف تتشكل الذوات الإنسانية، وماذا يمكننا أن نقصد بالثقافة**»(آنيا لومبا. 2007.ص 34) فعملية التحرر الثقافي التي عرفت لدى سمير أمين وإيمي سيزار وفرانتز فانون ثم إدوارد سعيد وهومي بابا بالإضافة إلى الجهود النقدية التي قدمها النقاد والمفكرون الغربيون من أمثال سيغموند فرويد وكارل ماركس وميشال فوكو وجاك ديريدا قادت إلى حصول تلك التحولات الهائلة في الدرس الأدبي المقارن .

خامسا : مدرسة الجزائر في الأدب المقارن

كما ولا بد من أن يتم في سياق عملية تكوين الطلبة والباحثين الجزائريين ضمن تخصص الأدب المقارن من أن يتم التركيز على طبيعة البحوث الأولى التي أقامها دارسون جزائريون وذلك لأهميتها في التكوين، حيث يمكن القول إن الدراسات الأكاديمية في الجزائر قد مرّت بمرحلتين مهمتين انبثق عنهما جملة من القضايا لعل أهمها هو اتسامها بطبيعة خاصة هي تركيزها على دراسات الصورة؛

فبحكم وقوع الجزائر تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي لمدة قرن وربع القرن فإن نتيجة ذلك هو كم كبير من النصوص التي تحمل صورة عن الجزائر والجزائريين أو العكس أي حمل نصوص جزائرية لصورة عن الفرنسيين وفرنسا وهو الأمر الذي يندر وجوده في حالات أخرى، ومنه لابد من التركيز على النصوص التي تحمل صورة عن الآخر سواء أكانت نصوصا مكتوبة من قبل جزائريين أم فرنسيين .

وقبل البداية في الحديث عن طبيعة تلك الدراسات لابد من أن نقدم لها بالسياق العام الذي أدى إلى ظهور الدراسات المقارنة في الجزائر وأول من نشير إليه هو الجهود الكبيرة التي بذلها العلامة محمد بن شنب في هذا المجال فهو الذي بدأ سن نوع من الدراسات لم يكن للجزائريين عهد بها فدراسته المعروفة " **الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية**" سنة 1919 تنتمي بعمق للدراسات الأدبية المقارنة كما أنه كان معروفا بجهوده في التعريف بالآداب العربية في الغرب، ولم يتوقف الأمر عنده بل واصل ابنه سعد الدين بن شنب مسيرة والده مساهما في حدوث تحولات كبرى في مجال المقارنة بالجزائر،« **فقد تطور هذا الطرح مستفيدا بما أنجزه الدكتور محمد بن شنب الذي يمثّل الانفتاح الكامل على العديد من الثقافات العالمية...إذ بعد هذا الأخير...ظهر جيل يكتب في حقل المقارنية باللغة الفرنسية وأبرز من ذكرتهم المصادر سعد الدين بن أبي شنب (1907- 1968)...وهو ابن الدكتور محمد بن شنب، كانت دراسته التخصصية باللغة الفرنسية وإلى جانبها كان يجيد اللغات الأوروبية لاسيما القديمة منها كالإغريقية واللاتينية**»(بومدين جلالي . 2012 . ص192/191). فقد ساهم كل من سعد الدين ومعه جمال الدين بن شيخ في تأسيس كرسي للأدب المقارن بجامعة الجزائر في سنة 1962، غير أن البحوث والدروس التي كانت تقدم أثناء ذلك كانت باللغة الفرنسية، ولا يهمنا هذه التفاصيل إلا في كيفية توضيحها لتطور الدراسات المقارنة وظهور المقارنين باللغة العربية. حيث تم تعريبها في سنة 1969 حيث ظهر أساتذة تركوا أثرهم الكبير على تطور هذا التخصص ويأتي على رأس هؤلاء الأستاذ أبو العيد دودو

الذي قام بتكوين جيل كامل من المتخصصين في الأدب المقارن « **فلقد أطر اختصاص الأدب المقارن عدد كبير من الأساتذة ..ممن تخصص في الأدب الأجنبية والترجمة...وضمن هؤلاء كان أبو العيد دودو**»(بومدين جلالي. 2012. ص 199/198) ويعتبر أبو العيد دودو أول أستاذ جزائري للأدب المقارن بالمعنى الحقيقي ، فقد شغل هذا المنصب بجامعة الجزائر من سنة 1969 إلى 2004 حيث وفضلا عن نشاطه بالتدريس قام بإنجاز عدة بحوث من ضمنها "**دراسات أدبية مقارنة** " و"**الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان**" كما يعتبر أول مترجم لرواية "**الحمار الذهبي** " التي ألّفها أبوليوس لوكيوس اللاتيني.

بعد دودو جاء عدد من الأساتذة التي تخصصوا في المقارنة « **من أمثال عبد الإله ميسوم وعبد المجيد حنون وعبد الله حمادي والأخضر بن عبد الله وعبد القادر بوزيدة** » (بومدين جلالي. 2012 . ص 199). فعبد الإله ميسوم هو أستاذ بجامعة وهران قام بدراسة " **تأثير الموشحات في التروبادور**" أما عبد المجيد حنون فهو أستاذ للأدب المقارن بجامعة عنابة منذ 1979 قام بإنجاز بحوث هامة من بينها "**صورة الفرنسي في الرواية المغربية**" و" **اللانسونية في النقد العربي الحديث**" وتعتبر جهود حنون من أهم الجهود التي أنجزت في ميدان المقارنة في الدراسات الأكاديمية الجزائرية كما يعود إليه الفضل في تكوين عدد كبير من الباحثين الجزائريين الذين يشتغلون اليوم في الميدان. ولخضر بن عبد الله هو أستاذ للأدب المقارن بجامعة وهران منذ مطلع الثمانينيات من مؤلفاته" **موضعة جان دارك في الآداب العالمية** ". أما الأستاذ عبد القادر بوزيدة فهو أستاذ الأدب المقارن في جامعة الجزائر ويعتبر من بين الخبراء الكبار فيه، وأهميته تكمن في كونه يعتبر صاحب الفضل في جيل من المقارنين الجزائريين الذين صاروا اليوم من أهم الباحثين ليس بجامعة الجزائر فحسب وإنما يمكن القول في الجزائر كلها، ومن الدراسات التي أقامها وهي رسالة دكتوراه قدمها سنة 1993 بالجزائر تلك الموسومة بـ" **تيمور وموباسان: رؤيتان وعالمان**" (بومدين جلالي. 2012.هوامش ص 199). وقد أعقب هذه الفترة اشتغال الدارسين بمواضيع معينة من مثل تصحيح مسار دراسات التأثير والتأثر ودراسات صورة

الآخر في الأدب وهي الميزة التي حاول الدكتور عبد القادر بوزيدة تكريسها في البحوث الجامعية والدراسات المتعلقة بها وموضوع الصورة يكتسي أهمية كبرى في الحالة الجزائرية لأنه يوضع كيفية اشتغال الأنساق الثقافية في النصوص الأجنبية التي أُلفت حول الجزائر سواء من قبل المعمرين أو من قبل كتاب أوروبيين مختلفين.

فعبد القادر بوزيدة أبان عن وعي كبير واستطاع أن يقدم نقدا للتوجه التاريخي الذي لزم المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن محاولا تصحيح مسارها«**فقد نشر رؤيته النظرية في مطلع التسعينيات مفندا ما ذهب إليه بعض المثقفين المشارقة حينما لخصوا النهضة العربية الحديثة بكل ما فيها من زخم وما أحدثته من تغيرات بأنها نتيجة احتكاك العرب بالغرب دونما أدنى مراعاة للعوامل الأخرى. وقد استقى المقارن الجزائري هذه الرؤية من جهتين مختلفتين، فمن جهة النظرية لقد كان مصدره الاتجاه السوسيولوجي (السلافي) الذي يتزعمه فيكتور جيرومنسكي...ومن الجهة التطبيقية لقد كان مصدره هو الدراسة المتميزة التي قام بها عن تأثر محمود تيمور القاص العربي بـ "غي دي موباسان" القاص الفرنسي ...فمفندا ما ذهب إليه المستشرق الفرنسي غاستون فييت** Gaston Wiet **الذي أنكر أصالة شخصيات القاص العربي، وعمّق عبد القادر بوزيدة هذه الرؤية السوسيولوجية الدقيقة ببحوث عديدة لا تحدّد نفسها بحدود الأدب المقارن في صورته القديمة المنغلقة**» (بومدين جلالي. 2012. ص 219/ 220). فهو منذ البداية كان على وعي بنقائص التصور الفرنسي القائم على نظرية التأثير والتأثر، فبالنسبة إلى المدرسة الفرنسية يبقى المتأثر سلبيا متقبّلا ولا يمتلك أصالة ، والتحولات الثقافية الكبرى في العالم غير الأوروبي بالنسبة إليها ترجع إلى التأثير الذي مارسته الآداب الأوروبية الكبرى والتي تم بموجبها خلق أنواع أدبية لم تكن معروفة في تلك الآداب (آداب العالم الثالث)، وعبد القادر بوزيدة ينحو نحو الإقرار بأصالة تلك الآداب التي وبالرغم من تأثرها بنماذج أوروبية راقية إلا أنها تحوي عناصر تعبّر عن أصالتها.

أما فيما يتعلق بدراسات الصورة؛ أي صورة الآخر في أدب الأنا أو العكس فهو يعتبر من أهم مباحث الأدب المقارن، ويكتسي الخوض فيه أهمية كبيرة بالنسبة للجزائر لكمية النصوص التي كُتبت عن الجزائر أو حولها « **وأول من نحا هذا النحو وأسّس لهذا التوجه هو الدكتور أبو العيد دودو ثم سار سيره وبأساليب متعددة عدد غير قليل من المهتمين بالبحث المقارن في الجزائر، من أبرزهم د. عبد المجيد حنون وعثمان بلميلود**».(بومدين جلالي. 2012. ص 221) فقد أصدر دودو كتابه" **رحلة فلهلم شيمبر إلى الجزائر بين سنتي** 1831 و 1832" وعبد المجيد حنون ببحثه" **صورة الفرنسي في الرواية المغربية**" وسّع فيه مدونته البحثية ليتناول المغرب والجزائر وتونس، ومن شأن تطور هذا المبحث الهام أن يكشف عددا من الأمور وأن يلقي بالضوء على العلاقة المتشابكة بين الجزائريين والفرنسيين منذ 1830 إلى اليوم .

وعلى الباحث اليوم أن يتخذ مدونته من نصوص الأدب الجزائري المعاصر وذلك من أجل استخلاص القيم ومحاولة اكتشاف أهمية قضايا من مثل العلاقات الثقافية والتعدد ودور كل ذلك في التفاهم الحضاري وإقامة جسر بين الثقافات في زمن انتهت فيه الحروب العسكرية وصارت الحروب الثقافية هي الواقع الفعلي وأصبح من الواجب معرفة كيفية إدارة تلك الحروب من أجل خدمة الثقافة الجزائرية ومحاولة فهم الواقع الثقافي القومي والأجنبي كليهما والوعي بالأنساق الثقافية التي تشتغل داخل النصوص الأجنبية. ولا أدلّ على هذا من ردّ الكاتب الجزائري كمال داوود في روايته " Meursault contre enquête على رواية L'Etranger لألبير كامو، فعلى البحوث المقارنة اليوم أن تواكب الإنتاج الإبداعي الروائي والشعري الجزائري ومحاولة استخلاص القيم منه في علاقاته المتشعبة مع الآخر.

مصادر ومراجع:

مصطفى ناصف، نظريات التعلم؛ دراسة مقارنة ترجمة علي حسين حجاج سلسلة عالم المعرفة أكتوبر 1983

سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن؛ دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 1987

رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت ، فبراير 1987،

إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبوديب، دار الآداب بيروت، الطبعة الثالثة، 2004

ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصر، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2000

ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصر، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، 2002

عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 2010

سوزان باسنيت، الأدب المقارن؛ مقدمة نقدية مقدمة نقدية، ترجمة أميرة حسن نويرة، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة مصر، 1999

آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار سوريا، الطبعة الأولى، 2007

- زبير دراقي، محاضرات في الأدب المقارن ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992

1- بومدين جلالي، النقد الأدبي المقارن في الوطن العربي، دار الحمراء، الجزائر. الطبعة الأولى، 2012